

السياسة هذه النظرة الضيقة على ما جرى - ويجري في المنطقة - وما هو نوع المصالح التي يدعو الى المحافظة عليها .

أن أشد ما يثير الكاتب هو ما يراه منتشرا بين المثقفين ورجال السياسة الانجليز من شعور دائم بالاثم بسبب ملك الغرب من نحو العرب بعد الحرب العالمية الأولى ليس صحيحا لديه القول بأن الإمبريالية والصهيونية هما أساس عدم الاستقرار في المنطقة ، ذلك أنه يرى ان عدم الاستقرار في الشرق عميق ومزمن ولن يشفي هذا المرض اختفاء إسرائيل او ما يسمى بالإمبريالية - التي يصف معاداتها بأنها تضاعف سوء الفهم وتشجع على تبني الأوهام لصالح المهيجين ومن يستخدمونهم بحيث يكون الخاسر - في النهاية - هو الراغب في السلام والتحضر ، وهو يرى ان محاولات تحديث المجتمع في الشرق الأوسط وجعله على النمط الغربي ، ديمقراطيا - لا بد وأن تجلب من المخازن ما يفوق النفع .

أذن فما هي نصيحة استاذ السياسة لمواجهة هذا المرض المزمن ؟ يخصص قدوري دراسة طويلة عن (سعد زغلول) والبريطانيين فيها يتابع مسار الأحداث في مصر من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٢٤ وذلك من خلال برقيات الموظفين البريطانيين في مصر ، وهو يوجه النقد العنيف لأولئك السياسيين الانجليز الذي اقتنعوا بأن ثورة حركة ثورية في مصر ، ونصحوا باتخاذ مواقف متعاطفة معها ، وتعديل نظام الحماية لصالح مؤسسات مصرية يحكمها دستور ونظام برلماني ، ولديه ان هؤلاء السياسيين حسبوا أنهم - بذلك - يحافظون على المصالح البريطانية من ناحية ، وبعضهم من ناحية اخرى تصرف وفقا لعقائده الليبرالية .

فماذا كانت النتيجة ؟ لقد استطاع اللبني عام ١٩٢٢ ان ينتزع تصريح فبراير المشهور من حكومته في لندن التي كانت تعارض إصداره بشدة ، وبهذا بدأت التصفية الطويلة والأيمة والمهينة لمركز بريطانيا في مصر والتي انتهت بأحداث نوفمبر ١٩٥٦ غير المتوقعة .

هذا عن المصالح البريطانية . اما الليبرالية فلم تستند شيئا من هذه التصفية ، لان ثمن حقيقة بسيطة وواضحة هي أن هذه المناطق التي يقال أنها تعاني اليوم من الإمبريالية لم تعرف طول

نظرة مبالغة في التشاؤم ، فمن الصفحة الأولى من كتابه نقراً : « منذ القرن التاسع عشر حين ادخلت الإصلاحات المزعومة التي الإمبراطورية العثمانية ، كان ثمة وزراء ودبلوماسيون غربيون ينظرون الى سياسة الشرق الأوسط بأمل في تحسن اموره ، ولكن خلال مئة السنة الاخيرة لم تشهد المنطقة استقرارا ... واذن فلعله من الأحكم ان نفترض ان الخلل في الشرق الحديث ليس امرا عارضا ، وان عدم استقراره السياسي هو بالأحرى نتيجة أزمة اجتماعية وثقافية عميقة لم تقدر مشروعات المصلحين او حسن نية المتعاطفين ان تعدل فيها او تلتطف حدتها » .

هذه هي نظرة الكاتب للمنطقة وهو يبدي أسفه لان (الغرض الرصين) الذي يعتبر ان الخلل في المنطقة (مزمن) لم يعتقه الا عدد قليل سواء في بريطانيا او في امريكا . على ان تشاؤم قدوري ليس قاصرا على المنطقة ، بل هو أشمل من ذلك . ان هذا التشاؤم يتسع لكي يضم في عتمته مستقبل الإنسانية على العموم ، فلدیه ان تفاؤل الليبراليين الغربيين وايمانهم بأن العالم ينزع الى التحسن وبأن في ميسور الانسان ان يساعد على تحسينه ، ومبادئهم التي توجه نشاطهم وعلى افكارها المتخالفة يقيمون علمهم السياسي - هذا كله يفسر موقفهم من منطقة الشرق الأوسط خصوصا حين ينادون بأن سلاما شاملا مستقرا سيؤيد العالم حين يصبح مكونا من دول تومية ديمقراطية تقدمية .

وفي رأي الكاتب أنه مهما يكن الحق في هذه المعتقدات فإنها ليست مما يجب ان يعتقه رجل الدولة بل أنها بالنسبة لهذا الآخر يجب ان لا تكون لها علاقة بعمله . ويسخر المؤلف من هذه المبادئ ويقول ان يكفي الرجال العمليين ان يواجهوا الشرور الحالية وان يحافظوا على المصالح الراهنة ، ولا يسوغ لهم ان يثقلوا كواهلهم بالعقائد التاريخية او أن يجروا وراء الأوهام في تلك المتاهات التي نشرها الكلام السياسي الغربي في العالم كله .

واضح من هذا الموقف ان المؤلف يعتقد موقفنا نفعيا خالصا وهو يدعو الى تعامل بين الدول والشعوب لا مبادئ تحكبه ، ومهما يكن من أمر - فالهم هنا هو أن نتعرف كيف يطبق استاذ